خطبة جمعة

في عذاب الله سبحانه للأمم السابقة

وأنواعه وأسبابه

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وليّ الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله – صلى الله عليه وسلم –، وبعد:

فإن الله تعالى قد أوضح في كتابه الكريم كيف أهلك الأمم السابقة، وأوضح سبحانه أنواع العقوبة التي أهلكم بها، وأوضح الأسباب التي أهلهكم بسببها.

يقول الله سبحانه وتعالى: "وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا، وجعلنا لمهلكهم موعدًا". ويقول سبحانه وتعالى: "وكم قصمنا من قريةٍ كانت ظالمةً، وأنشأنا بعدها قومًا آخرين". ويقول ربنا سبحانه وتعالى: "أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم، إن في ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون". ويقول سبحانه وتعالى: "وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا". ويقول سبحانه وتعالى: "فكُلًّا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا، ومنهم من أخذته الصيحةُ، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقْنا، وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون". ويقول سبحانه وتعالى: "فكأيّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة، فهي خاوية على عروشها، وبئرٍ معطلةٍ وقصرٍ مّشيدٍ". ويقول سبحانه وتعالى: "أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها". والآيات في بيان ذلك كثيرةٌ ومعلومةٌ.

وفي هؤلاء الآيات – وما في معناها من الآيات الكريمات – مسائل عظيمة، نشير إلى بعضها:

المسألة الأولى: – أن الذي يدمّر القرى، ويبيدها، ويهلك أهلها، هو الله تعالى، لأن الله تعالى أضاف ذلك إلى نفسه، حيث يقول سبحانه: "وتلك القرى أهلكناهم". ويقول سبحانه: "وكم قصمنا من قريةٍ". ويقول سبحانه: "فكُلًّا أخذنا بذنبه". ويقول سبحانه: "وكم أهلكنا من القرون". ويقول سبحانه: "دمّر الله عليهم". ونحوها من الآيات الكريمات، فهو الذي يهلك القرى، وهو الذي يقصمهما، وهو الذي يدمّرها.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

فليس الأمر كما تقوله وسائل الإعلام، فوسائل الإعلام تصف هذه الفيضانات، وتصف هذه الأعاصير، وتصف الرياح الشديدة، – وتصف غيرها من الكوارث – تصفها بأنها كوارث طبيعية، أو أنها ناشئة عن غضب الطبيعة. وهذا زورٌ وباطلٌ، بل هذا من غضب الله تعالى، ومن شديد عقابه.

والمسألة الثانية: – أخبرنا الله – سبحانه – أنه لما دمّر القرى الظالمة، وانتقم من أهلها، إنما كان ذلك بسبب ذنوبها وظلمها وإعراضها. فالله تعالى أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ودعا العباد إلى الإيمان به، وذكّرهم بما له من الحقّ العظيم عليهم، فاستكبر العباد، وظلموا أنفسهم، فأنزل عليهم العذاب الشديد بما كسبت أيديهم. "وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أن هذا العذاب الذي نزل على الأمم، إنما كان بسبب ظلمهم لأنفسهم، وقد وضّح القرآن الكريم هذا المعنى.

أ ــ فمن أسباب هلاك الأمم: الذنوب، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: "فكُلًّا أخذنا بذنبه".

ب ــ ومن أسباب هلاك الأمم الإعراض: حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: "لقد كان لسبإ في مسكنهم آية، جنتان عن يمين وشمال، كُلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكُل خَمْطٍ وأثلٍ، وشيءٍ من سدرٍ قليلٍ * ذلك جزيناهم بما كفروا، وهل نجازي إلا الكفور".

ج ــ ومن أسباب هلاك الأمم الظلم: حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: "وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا، وجعلنا لمهلكهم موعدًا". ويقول سبحانه وتعالى: "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليمٌ شديدٌ".

د ــ ومن أسباب هلاك الأمم المكر، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: "قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد، فخرّ عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

هـــ ومن أسباب هلاك الأمم كُفْر النعم، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: "وضرب الله مثلًا قريةً كانت آمنة مطمئنةً، يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون".

فكفر النعم سبب عظيم لزوالها وذهابها، وهذا عهد جعله الله على نفسه حيث يقول سبحانه وتعالى: "وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد".

والمسألة الثالثة: – أن الله سبحانه أخبرنا أنه ينوّع العذاب لهذه الأمم بما تقتضيه حكمته، فقد يخسف الأرض بالعباد، وقد يغرقهم في البحار، وقد يرسل عليهم الرياح، وقد يرسل عليهم الصيحة، وقد يرسل عليهم الجراد والقُمّل والضفادع والدم، وقد يرسل لهم غير ذلك من أنواع العذاب.

قال تعالى: "فكلًا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقْنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

والله تعالى قد نوّع العقوبات للعباد، لعظيم قدرته سبحانه، ولأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه قادر على العباد مهما طغوا في الأرض.

المسألة الرابعة: – أن عقوبات الله تعالى لا تقتصر على ما ذكره الله في كتابه، بل هو قادرٌ سبحانه على أنواع كثيرة وعظيمة، يقول سبحانه: "وما يعلم جنود ربك إلا هو".

فالله سبحانه قد يرسل الزلازل على الناس، وقد يرسل عليهم الفيضانات والأعاصير، وقد يرسل عليهم الرياح والعواصف الشديدة، وقد يرسل الثلوج، وقد يرسل الأمراض الفتاكة، والأوبئة المستعصية، وقد يرسل غير ذلك.

فكل ما ترونه من هذه الكوارث والمآسي التي تحل بالقرى والبلدان، فإنها عذابٌ من الله تعالى بسبب الذنوب والمعاصي، حتى وإن جاءت أنواعٌ جديدةٌ لم تكن تعرفها الأمم السابقة فكلّ ذلك من عذاب الله تعالى.

المسألة الخامسة: – إن هناك أنواعًا من العذاب، يرسلها الله تعالى على العباد بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ولكن هذه الأنواع من العذاب لا يتفطن كثيرٌ من الناس إلى أنها عذابٌ من الله تعالى، وأنها عقوبات بسبب الظلم والطغيان.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

فمن هذا العذاب:

أ ــ حصول الحروب وذهاب الأمن، فكثيرٌ من هذه الحروب التي تحصل في مجتمعات المسلمين إنما هي بسبب الظلم، كما قال تعالى: "قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم، أو من تحت أرجلكم، أو يَلبسكم شيعًا، فيذيق بعضكم بأسَ بعض".

فهذه الحروب التي تذهب فيها ما لا يحصى من الأرواح، والأموال، والأوقات، والجهود، إنما هي نوعٌ من العذاب يعاقب الله بها الأمم.

وإنما قلنا كثيرٌ من الحروب ولم نقل كلّ الحروب، لأن هناك حروبًا دوافعها معقولة، وأسبابها مشروعة.

ب ــ ومن أنواع العذاب الجوع والخوف، كما قال تعالى: "فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون".

فما يحصل من المجاعات – ولاسيّما البلاد التي كانت في رخاء – فإنما هو نوعٌ من عذاب الله تعالى.

ج ــ ومن أنواع العذاب ارتفاع الأسعار، وشدة المؤنة كما جاء في الحديث: "يا معشر الأنصار خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن". وذكر منها: "وما خفّف قوم المكيال إلا ابتلاهم الله بشدة المؤنة وجور السلطان". رواه ابن ماجه عن ابن عمر، وصحّحه العلامة الألبانيّ في "الصحيحة".

فالأزمات الاقتصادية مثل هبوط العملة، وارتفاع الأسعار، وما ينشأ عن ذلك من ازدياد نسبة الفقر، كلّ ذلك أنواعٌ من العذاب.

د ــ ومن أنواع العذاب ظلم السلطان كما قال تعالى: "وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون". وكما في الحديث السابق: "وما خفّف قوم المكيال إلا ابتلاهم الله بشدة المؤنة وجور السلطان".

فظلم الحكّام، وقسوتهم، وعدم مبالاتهم بالناس، إنما هو نوعٌ من العذاب.

والغالب أن الله تعالى يجعل أخلاق الحكام صورةً لأخلاق الشعوب كما قال العلامة ابن القيّم، فإن كانت الشعوب متحايلةً، عاقبها الله تعالى بحكّام متحايلين، وإن كانت

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

الشعوب ظالمةً عاقبها الله بحكّام ظلمة كذلك، وإن كانت الشعوب مستهترةً بأوامر الله تعالى، عاقبهم الله بحكّام مستهترين بحقوقهم.

فالناس إذا كانوا لا يبالون – مثلًا – بالصلوات، سلّط الله عليهم حكّامًا لا يبالون بالناس، ولا يسألون عنهم.

فظلم السلطان لرعيّته، واستئثاره بحقوقهم نوعٌ من العذاب يسلطه الله على الناس، وهذا النوع من العذاب لا يرتفع بقيام الثورات الشعبيّة، ولا بحصول الانقلابات العسكريّة، ولا بالإضرابات العمالية، ولا بالانتفاضات الثوريّة، ولا بالمظاهرات العامّة [1]، ولا بغير ذلك من الوسائل، وإن زعموا أنهم يفعلونها لتغيير الأوضاع، فإن هذا لا يغير من الأوضاع، لأن عذاب الله لا يندفع بالسيوف، وإنما يدفع بالرجوع إلى الله تعالى، وباستغفاره والتوبة إليه، وبالانكسار له.

روى الآجري في "الشريعة" عن الحسن البصري أن قومًا أتوه – أيام فتنة يزيد بن المهلب – فأمرهم الحسن أن يلزموا بيوتهم، ويغلقوا عليهم أبوابهم، ثم قال: "والله لو أن الناس إذا ابتُلوا من قِبَل سلطانهم ثم صبروا، ما لبثوا أن يرفع الله ذلك عنهم، وذلك أنهم يفزعون إلى السيف فيوكلوا إليه، والله ما جاءوا بيوم خيرٍ قط"، ثم تلا: "وتمّت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون".

يقول شيخنا الشيخ ربيع بن هادي المدخلي: "وانظر إلى قول الإمام الحسن البصري وقول الإمام الآجريّ وقارن بينهما وبين دعاة الفتن وعشّاق قوانين وأنظمة اليهود والنصارى كالديمقراطية المحاربة للإسلام – عقائده ونصوصه ومناهجه – وما انبثق منها كالمظاهرات التي هي من أعظم المنكرات ومن أعظم الفساد والإفساد في الأرض" ا.هـ [2]

---

[1] وسائل اقنع الغربيون بها بعض الناس، مع أن الغربيين لا يفعلونها في بلادهم.

[2] "الذريعة إلى بيان مقاصد كتاب الشريعة" (١/١٧٧).

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

المسألة السادسة: – وفي الآيات السابقات أن الخلق يهونون على الله تعالى إذا عصوه وخالفوه أمره.

ولما فتحت قبرص بكى أبو الدرداء، فقيل له: "ما يبكيك يا أبا الدرداء، هذا يوم قد أعزّ الله فيه الإسلام ؟! فقال: "إنما أبكي أني رأيت هذه الأمة كانت قاهرةً ظاهرةً، فأضاعت أمر الله فيه، فأصارها الله إلى ما ترون، ثم قال: "ما أهون العباد على الله إذا ضيّعوا أمره".

المسألة السابعة: – أن الله أخبرنا بهذه الأشياء، لتكون تلك المواعظ دروسًا عظيمةً لهذه الأمة تتّعظ بها، وتستفيد منها، لأنها هي المخاطبة أصلًا في هؤلاء الآيات، فإن الله تعالى لما أخبر عن هلاك الأمم السابقة بأنواع من العذاب قال سبحانه بعد ذلك: "أكفاركم خيرٌ من أولئكم، أم لكم براءةٌ في الُزبر".

أي: لماذا لا تخافون على أنفسكم من العذاب ؟! أكفاركم في هذه الأمة خيرٌ من كفار الأمم السابقة لذلك أمنتم من العذاب ؟! أو أن عندكم براءة في الكتب السابقة تقتضي بأن العذاب سيصيب جميع الأمم إلا أنتم ؟!

والمقصود أن يحذروا على أنفسهم من العذاب الذي أصاب غيرهم من الأمم.

نسأل الله أن يحفظ علينا ديننا ويتوفانا مسلمين.

أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وليّ الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله – صلى الله عليه وسلم –، وبعد:

فينبغي أن يُعلم أن الله لا يعاقب بكلّ الذنوب، لأنه يعفو سبحانه كثيرًا ويتجاوز عن كثير، كما قال تعالى: "ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة". وقال تعالى: "وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير".

وينبغي أن يُعلم كذلك أن كلّ عقوباته في الدنيا إنما هو من العذاب الأدنى، وهو دون العذاب الأكبر الذي يكون يوم القيامة كما قال تعالى: "ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، لعلهم يرجعون".

ومن رحمة الله سبحانه أن بيّن لنا في كتابه الكريم الأسباب التي يندفع بها العذاب، فمن هذه الأسباب:

أولًا: – الاستغفار: فإن الله تعالى يقول: "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون".

ثانيًا: – ومن أسباب دفع العذاب الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: "وما كان ربك ليهلك القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون".

فلم يقل سبحانه "وما كان ربك ليهلك القرى بظلمٍ وأهلها صالحون". وإنما يقول: "وأهلها مصلحون". فصلاح الصالحين لا يكفي للنجاة من العذاب، بل لابدّ من صلاحنا في أنفسنا وإصلاحنا لغيرنا، فهذا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا هو التواصي بالحقّ والتواصي بالصبر الذي أمر الله به سبحانه.

ثالثًا: – ومن أسباب دفع العذاب التضرّع والانكسار: كما قال تعالى: "ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرّعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا، ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون *".

يخبر سبحانه أنه بعث إلى الأمم السابقة رسلًا يدعون الناس إلى الله تعالى، فكذّبهم الناس، فعاقبهم الله بالبأساء والضرّاء، والبأساء هي العقوبة في الأموال، وذلك بشدة الفقر وضيق المعيشة، وأما الضرّاء فهي العقوبة في الأبدان، وذلك بالأمراض والآلام؛

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

وأخبر سبحانه أنه عاقبهم بذلك لينكسروا ويتذلّلوا له سبحانه، ولكن لم يخضعوا لقسوة قلوبهم وصلابتها، بل زيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الظلم والمعاصي.

وإذا أخبرنا الله تعالى بذلك عن الأمم السابقة فهذه دعوة لهذه الأمة إلى التضرّع والانكسار، وعدم مشابهة الأمم السابقة في قسوة قلوبهم.

فالحذر الحذر من الذنوب والمعاصي، فإن سبب هلاكِ الأمم ودمارِها، وزوالِها.

نسأل الله العظيم أن يدفع عنا وعنكم أسباب غضبه، وموجبات عذابه، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

أقول ما تسمعون وأستغفر الله العظيم لي ولكم

وأقم الصلاة.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)